مأساوية الموت في الشعر المغربي القديم

علي الحصري القيرواني(420هـ-848هـ) أنموذجا

رضوان جنيدي/المركز الجامعي بتامنغست
salimdjenidi@yahoo.fr

ملخص:

تحاول هذه الدراسة إبراز أن النفحة المأساوية قد تتجلى في كل ظرف وفي كل نوع أدبي متجاوزة بذلك المسرحية إلى القصيدة الغنائية، وهو ما يجعل الحس المأساوي مشاعا إنساني يثبت أن المأساوية حقيقة تشترك فيها الإنسانية بشرقها وغربها، كما تقف هذه الدراسة أمام معاناة الأنا الشعرية في شعر أبي الحسن الحصري القيرواني الضرير لتجربة موت الابن وعدم اكتفائه بالمعاناة السلبية، وتأكيده على مواجهة قدره ونفي الاصطبار ورفض العزاء وتحريم الصبر.

تمهيد

شغلت حقيقة الحياة والموت جانبا كبيرا من تفكير الفلاسفة والمفكرين والأدباء في محاولة منهم لإدراك سر النسيج الكوني وكنهه، وظلت حقيقة الموت تعاود اقتحام حياة الإنسان العربي وأفكاره، كلما ظهر له مظهر من مظاهرها، وتجلى له ضعفه أمام القضاء المحتوم، وأدرك أنه طريدة لمصائب الدهر، وتيقن من ضآلة ما يدركه في الحياة من حظوظ مهما أشتد حرصه؛ وبالغ في مواصلة السعي، واندهش لمصيبة الموت، وأكثر الحديث عن التفكير فيه، مما يدل على أن الشاعر العربي بقدر ما كان يستغرب الموت، ويبذل أقصى ما في وسعه من جهد لينجو من أحابيله؛ فهو أيضا يريد أن يعرف حقيقته، ويتبين ما يحيط به من إبهام وغموض؛ فالإنسان حين يعي وجوده، يظهر له الموت مأساة الحياة الكبرى.

والشاعر أبو الحسن علي **الحصري الضرير**[1] عرف الحزن، وخبر الألم وهو الذي نزع عن فردوسه القيروان، وفارق الأحبة، واحتوته بلاد الأندلس

العامرة، واستقبلته جنانها الساحرة وعزفت له حدائقها ورياضها ألحان المسرة والهناء، وغنته بلابلها وأطيارها أناشيد الأمل والضياء؛ وما زادت نار قلبه إلا اتقادا، وأصبحت حياته انفرادا؛ فتجلت له المأساوية، وجرحت وعيه، وبقي هذا الجرح ينزف آلاما، ويتعمق هذا الوعي الجريح الذي لم يسع الشاعر إليه بفقد الابن، ليصطدم بإرادة مصيره، ويكشف برعب **حقيقة الموت** وحقيقة الحياة، ويشكل هذا الفقد الحدث المأساوي، ويعلو معه صوت الشاعر بضمير المتكلم (**أنـا**) محاولا التعبير عن خبرتـه المأساوية.

1/- الانفعال المأساوي:

لعل أهم مشكلة واجهها الشاعر الجاهلي هي الإحساس بأنه زائل، فهو يؤول في نهاية الأمر إلى العدم، وأدرك أن الإنسان يتوهم أنه سيد الوجود، وسيد نفسه؛ إلا أن القدر يؤكد له أنه ليس إلا ضحية هالكة بين هذه القوى الحتمية "التي دعاها الأغارقة **القدر** تلك القدرة الغامضة الواضحة التي لا حدود لها، ولا قيود إنها هي التي تقـدر النصر والهزيمة والقوة والضعف والحياة والموت"[2] ، وقد أسماها الشاعر العربي (**الدهر**) الذي نسب إليه كل غدر وعاهة ومصيبة ألمت به؛ فسخط عليه، وشكا من أقداره المستبدة الظالمة، ورآه عدوه الأبدي، ولم يحسن الظن به، ولم يشر إليه إلا في باب اللعنة؛ فكانت "فكرة الدهر هي قوام معظم القصائد العربية"[3]، لترتبط موضوعاتها **بحس المأساة** التي يتسير الشعراء به ليؤول بهم في نهاية المطاف إلى الموت، وما الحنين إلى الطفولة وبكاء الأطلال الدارسة إلاّ أساليب للنوح من وطأة القدر الذي يرتهن الإنسان؛ فالطلل – مثلا- ولج إلى قصيدة الشاعر الجاهلي، واستقر في مطالعها لأنه "كان التجربة الدائمة في حياته، وهي تجربة الزوال، واللااستقرار والصيرورة"[4] ، التي جعلته يحس بهزيمته أمام الزمن والحياة، ففيه تتجلى تجربة الموت؛ وبذلك استأثرت فكرة الموت أو الدهر أو الفناء كامل تأملاته، وانتهى إلى معاداة الدهر، فصور الموت ناقة عمياء تتخبط بمصائر الأحياء[5] ، وصوره قوة لا ترد ولا تواجه.

وليس غريبا أن يشغل الشاعر **أبو الحسن الحصري** نفسه بفكرة الموت، وهو الذي ابتلي بفقد الأب ثم الأبناء الأربعة، وترك فقد الابن الأخير(**عبد الغني**) أثرا عميقا في نفسه، وفي نظرته إلى الحياة من حوله؛ حيث تجلت له الدنيا ولا أمان فيها لأحد، ولا ثقة بها لمخلوق، خادعة متقلبة إذا منحت بسخاء، سلبت بعنف؛ وهل من عطاء أجزل من ابن؟ إنه منتهى ما كان يطمح إليه، ولكنه رآه يقبر ويوارى التراب، فينتهي كل شيء في لحظة، وإذا الأمل الكبير سراب، ووقف الشاعر عند عبثية[6] الزمن ومكره به؛ فازداد حزنه، وكثر غمه وهمه، وعتم نفسه شيء من الكآبة واليأس، وهو يشاهد اختطاف الموت للأحياء دون تمييز، فصور مأساة الحياة وهشاشتها:(مج الوافر)/(د: ص383)

عَهِدْتُ مَشَارِبِي صَرْفًا ... فَمَا لِلدَّهْرِ أَجَنَّهَا
لَحَا اللَّهُ الزَمَانَ أَبًا ... أُسُودُ بَنِيهِ أَثْخَنَهَا
كَأَنَّهُمُ عِدَاهُ فَكَمْ ... أَثَارَ وَغًى وَأَكْمَنَهَا
أَغَثُّ بَنِيهِ يَأْكُلُهُ ... فَكَيْفَ يَعَافُ أَسْمَنَهَا
وَأَيُّ أَبٍ يُدِيرُ عَلَى ... بَنِيهِ رَحًى لِيَطْحَنَهَا[7]

فيشعر بعبثية الحياة ما دام الدهر ينغص ما صفا منها ، وتظهر المفارقة بين ما كان فيه الشاعر من سعة ونعمة، وما آل إليه من بؤس وشقاء في نهاية المطاف؛ ويرى الدهر أبا خؤونا يدير رحاه على أبنائه لا يميز بين صغيرهم وكبيرهم، وضعيفهم وقويهم، همه إفناؤهم، وإلحاق الأذى بهم، لا يرأف ولا يتعطف، ويستشعر الشاعر بذلك معاناة الظلم؛ فهو ضحية كأنه يملك إرادة ولا يملكها، صاحب قدرة في غاية الضعف، بل إن قدرته موهومة مادامت تقف أمام حاجز القدر / الدهر:

تصادم ← **عهدت مشاربي صرفا**
فما للدهر أجنها ← **قدرة الدهر**

ويزداد إحباطه، ويقوى عذابه، ويسخط على الدنيا: (مج الوافر)/(د: ص384)

فَيَا مَا أَخْدَعَ الدُّنْـيَا وَأَخْبَثَهَا وَأَخْتَنَـهَا
وَأَقْطَعَهَا إِذَا وَصَلَتْ مُحِبِّيهَا وَأَخْوَنَـهَا
وَأَوْأَدَهَا لِمَـوْلُـودٍ تُنَشِّبُ فِيهِ بُرْثُنَهَا
أَرَى شَـرِّسَ الْحَيَاةِ غَدًا يُفَارِقُهَا وَلَيِّنَهَا
فَمَا لِي وَالْغُرُورُ بِهَا أَلَسْتُ أَرَى تَخَوُّنَهَا

وتتضاعف قتامة الصورة بما يسند إلى الدهر والدنيا من خصائص دالة على الصلاح والفساد في آن واحد:

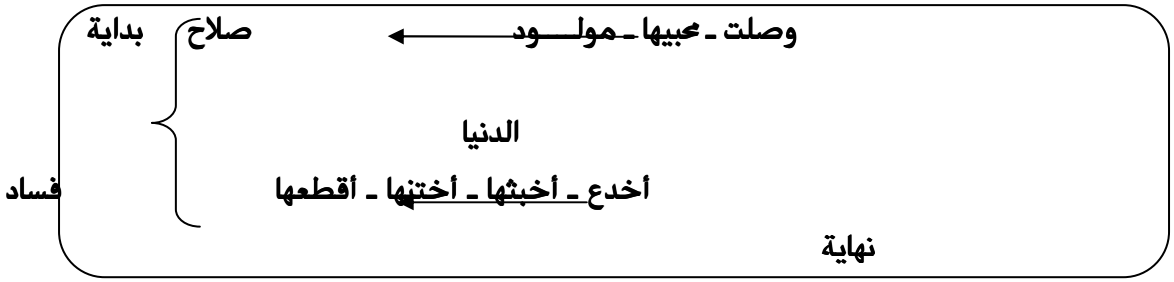

الوصل والمحبة والميلاد ثم الخداع والكيد والتشتيت والإبكاء والإفناء، فيكثف من **الحس المأساوي** وهو يفكر في الأيام، وما يأتي به الدهر من رزايا؛ فحياة الإنسان في يد القدر يسيطر عليها، ويصرفها كما يشاء، لا راد لأمره ولا لحكمه، فحكمه نافذ، وقد حكم على الوجود بالفناء في آخر الأمر، والحياة شر لا تستحق حبا ولا إقبالا، بل تستحق الكراهية والإعراض لتتجمع بذلك في صدره هذه الأحاسيس القاتمة، ومعانيها المظلمة، ويأخذ يرددها:

(المديد)/(د: ص310)

يَا عُقَابَ الْمَوْتِ حُمْـتَ عَلَى عَقِـبِي فَانْحَـلَّـتِ الْعُقَـدُ
اخْتَطَفْـتَ ابْـــنَ اللُّبَاةِ وَلَمْ تَحْمِـهِ الأَظْفَـارُ وَاللُّبَـدُ

ولا ينظر بذلك إلى موضوع الموت مستقلا، بل مرتبطا بعبثية الوجود، ليغدو الابن محنة يرجع من خلالها مأساته الكبرى التي هزت منه الكيان والوجدان؛ فالموت اغتال ابنه، واستله من بين يديه، دون أن يقوى على دفعه

عنه، أو حفظ الحياة له، ويتحول بذلك رثاؤه إلى ترجيع صدى هزيمة الأب، وحديث روحه التي أجهزت عليها المأساة، وأحاط بها الشقاء من كل جانب: (البسيط)/ (د: ص289)

وَكَأْسِ ثُكْلٍ عَلَى رَيٍّ شَرِبْتُ بِـــــهَا   فَرُحْتُ فِيهَا بِتَمْرِيـــــصٍ وَتَمْرِيثِ
قَالُوا أَفِقْ لِعُلاَ يُؤْذِيكَ قُلْتُ لَهُـــــمْ   لاَ يُؤْلِمُ الْمُنْتَشِي عَـــضٌّ الْبَرَاغِيثِ
عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَا عَنْهُمْ شُغِلْتُ بِهِ   وَالصِّلُ لَيْسَ يُبَالِي بِالْخَـــفَافِيثِ
تُوُفِّيَ الْخَلَفُ الزَّاكِي وَعِـــشْتُ كَمَا   تَرْضَى الْعِدَا عَيْشَ مَكْرُوبٍ وَمَكْرُوثِ
حَتَّى أَعَافَ شَرَابًا لَسْتُ أَمْزُجُـــهُ   بِعَبْرَتِي وَطَعَامًا غَيْرَ مَغْلُـــوثِ
وَكُنْتُ فِي جَنَّةٍ حُفَّتْ جَوَانِبُـــهَا   بِالزَّرْعِ وَالنَّخْلِ وَالأَعْنَابِ وَالتُّـــوثِ
فَأَصْبَحَتْ يَوْمَ أَوْدَى وَهِيَ خَـــاوِيَةٌ   جَرْدَاءَ مِنْ كُلِّ مَغْرُوسٍ وَمَـــحْرُوثِ

الدهر ظالم للشاعر يقف حجر عثرة في طريق نجاحه، يبدد أمانيه، و يحول دون تحقيقها، لا يتركه يعيش بسلام؛ فينفتح خطابه على **المشهد المأساوي** الذي تقترن فيه وفاة الابن بلافتة مأساوية ترسم وضع الذات الشاعرة بكل وحشية ومرارة يأس: (وَكَأْسِ ثُكْلٍ شَرِبْتُ بِهَا)، وقد سبق للشاعر أن ارتوى من الموت، وذاق مرارته: (عَلَى رَيٍّ)، ولم يعد الألم يؤذيه، فقد بلغ درجة النشوة التي تفقده الوعي، وتجعله يرتفع على واقعه الممتزج بالموت، وتكالب الدهر عليه، ولم يعد يستسيغ الحياة إلا ممزوجة بالكدر والمرارة، فقد غابت حلاوة الحياة بغياب الابن :

وجود الابن = جنة = حفت جوانبها : زرع – نخل – أعناب ـ توت = الحياة

غياب الابن = جنة = خاوية – جرداء من كل مغروس ومحروث = موت

وتثير الذكريات في نفسه حزنا شديدا، ويتذكر تلك اللحظات السعيدة الهادئة، حين كان ينعم بالحياة رفقة ابنه في جنة: (كُنْتُ)، ويرجع إلى حاضره / الواقع، ويزداد هما(أَصْبَحْتُ)، وتنتهي إرادته أمام إرادة الدهر؛ فهو أراد عيشا سعيدا، وإذا بالدهر يثلج صدور الأعداء، ويفسد حياته، ويعبث بها:(عِشْتُ كَمَا تَرْضَى الْعِدَا)، ليقوى **شعوره المأساوي**، ويرى الموت قاهرا له، ويفقد التوازن، إذ الوجود أصبح موتا، والأماني صارت سرابا:(الطويل)/ (د: ص398)

أَنَا الْوِتْرُ فِي فَضْلِي بِإِقْرَارِ حُسَّدِي   وَلَوْ عِشْتَ كُنَّا فِـــي فَضَائِلِنَا الشَّفْعَا

تَمَنَّيْتُ أَنْ تَبْغِي مُنَاكَ فَأَخْلَفَتْ   أَمَانٍ أَرَتْنِي فِيكَ مُرَّ بَرْقِهَا لَمْعَا
أَوْلَتْنِيَ الأَيَّامُ ثُمَّ بَدَا لَهَا   فَمَا كَانَ أَدْنَى مِنْ وِلاَيَتِيَ الْخَلْعَا

المساعي في الحياة الدنيا بقيت مشروعا غير قابل للتحقيق، والولاية أعقبها الخلع الذي أحال تلك السعادة شقاء، وما أقسى الحرمان بعد النعيم؛ فعلى قدر حظ الإنسان من النعيم يكون حظه من قسوة الحرمان والهم والفقد .

ويصور الشاعر الأشياء وقد بدأت بداية معينة، كان يمكن أن تؤدي إلى نتيجة معينة، ولكن عاملا طارئا مناوئا يضع لها نهاية سريعة غير متوقعة، ليزداد شعوره بالإحباط : (المديد)/ (د: ص309)

دُرَّةٌ يُزْهَى بِرَوْنَقِهَا   مُنْتَقٍ لِلْدُّرِ مُنْتَقِدُ
مَلَأَتْ عَيْنَ الزَّمَانِ سَنًى   وَصَفَا مِنْهَا لَهُ الصَّفَدُ
لَوْ تَمَادَتْ مُدَّةُ ابْنِيَ   لَمْ يَتَجَاوَزْ حَدَّهُ أَحَدُ
كَانَ طِفْلاً لَوْ غَزَا مَائَةً   لَمْ يُهِلْهُ لِلْعِدَا عَدَدُ
طَارَ للعَلْيَا فَأَدْرَكَهَا   بِجَنَاحٍ رَاشَهُ الرَّشَدُ
وَابْتَنَى المَجْدَ الْمُؤَثَّلَ وَالْعَمَلَ الزَّاكِي لَهُ الْعَمَدُ
يَاعُقَابَ الْمَوْتِ حُمْتَ عَلَى   عَقِبِي فَانْحَلَّتِ الْعُقَدُ
اِخْتَطَفْتَ ابْنَ اللُّبَاةِ وَلَمْ   تَحْمِهِ الأَظْفَارُ وَاللُّبَدُ
وَخَبَا نَجْمِي فَهَا أَنَا ذَا   لاَ سَنَى يَهْدِي وَلاَسَنَدُ

البدايات سعيدة، والفضائل عديدة ، ولكنها عاجزة عن حماية الابن من مخالب الموت الذي سخر مما عظمه الشاعر في ابنه، وما جعله يتمايز به عن غيره، ولكن ذلك لا يلبث أن ينتهي بحلول عقاب الموت الهازم لإرادة الشاعر في حماية ابنه، وإطالة مدة لبثه في هذا الوجود؛ فما كان مرجوا انهزم، و خاب معه الرجاء، وقوي بذلك إحساس الشاعر بأن الموت يعبث بآماله، وينتهي بها نهاية مخيبة، "وغالبا ما يكون **الحس المأساوي** لدى الشاعر ويقظته هما السبب في هذا التحول الذي ينتهي بالموقف إلى النهاية غير النهاية المرئية، أو المتوقعة بمنطق العقل، والسبب هو ذلك التدخل التعسفي لعنصر يبدو غريبا وطارئا

على الموقف "[8]؛ تشرق آمال الشاعر في بداية الأبيات – لتنطفئ وقد حسم عقاب الموت/ الطارئ الموقف، و حول الحياة إلى موت، ويفسر هذا الإخفاق والتخاذل(اختطفت – لم تحمه) أمام الموت وسرعة صرعه لأماني الشاعر بالإحباط؛ فيبدو بذلك أن الموت قد لا يزعج في حد ذاته، ولكن الموت الفجائي (عقاب الموت) وغير المتوقع؛ " الموت العابث الذي يظهر في اللحظة غير المناسبة لكي يضع النهاية المحزنة"[9] التي تفقد الشاعر القدرة على تمييز مرارة الحياة وحلاوتها، فتتساوى الأحاسيس لأن النهاية واحدة، وهو يفصح بذلك عن مأساته؛ فضائل الابن وحرص الأب لا تجدي أمام الموت، لذا هو يطيل "التفكير في القدر، وقصور الناس أمامه، وعبثه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم"[10]، ويكثر من استحضار مشهد احتضار الابن، ويظهر تصادم رغبته ورغبة الابن في الحياة مع رغبة الموت في اختيار النهاية، ويعيد رسم المشاهد التفصيلية لمرض الابن: (المديد)/(د: ص309)

لَسْتُ أَنْسىَ مَقَامَه وَمَقَامِي وَكِلاَنَا مِثْلُ القَتِيلِ خَضِيبَا
أَنْفُهُ يَنْثُرُ الْعَقِيقَ وَعَيْنِي تَنْثُرُ الدَّمْعَ بِالْعَقِيقِ مَشُوبَا
ضَمَّنِي شَاكِيًا إِلَيَّ وَقَلْبِي كُلَّمَا يَشْتَكِي يَطِيرُ وَجِيبَا

الابن اشتكى الرعاف الذي ألم به، واحتمى بوالده ليمنع عنه نزيف الدماء التي تحمل دلالة الحياة؛ واستمرار الرعاف سيؤدي إلى الموت، والأب يدرك أن لا حيلة له أمام حتمية الموت، ولا يجد سبيلا سوى ذرف الدموع دموع الاستسلام واليأس والإذعان لمشيئة القدر التي لا يجدي المرء أية جدوى من رفضها والثورة عليها، الابن يصارع من أجل البقاء: (ضمني– شاكيا)، والأب متيقن أن لا سبيل للخلاص، عزاؤه الدموع تقر هزيمته التي ستخلف في نفسه قنوطا يجلل مظاهر حياته بالسواد والعتمة، وهو الذي استشعر الموت المعنوي[11]: (كلانا مثل القتيل) بعد موت ابنه الفيزيائي، وما أقسى الموت الأول إذا قورن بالثاني، ويتجلى ذلك في تمنيه أن يموت ميتة واحدة تزيل حسراته: (المديد)/ (د: ص294)

أَجَلِي عَنِّي أَرَاثَ شَعُوبَا وَيوَدِّي أَنَّهَا لاَ تُـرَاثُ
مُتُّ يَا عَبْدَ الْغَنِيِّ وَمَالِي مِنْكَ إِلاَّ حَسَرَاتِي تُرَاثُ

ويضعنا أمام لـب المأساة، إذ يكثر من تصوير الابن يتخبطه الموت، ويتجرع غصص هذا المصير الذي سيحول قصائده إلى مراث جنائزيـة تحمل دلالة اندحار الشاعر أمام مشاهد الموت المرتسم على وجه الابن، لتكون المنية داء الشاعر: (الوافر)/ (د: ص277)

شَفَانِي السَّيْفُ مِنْ هَامِ الأعَادِي وَلَكِـنَّ الْمَنِيَةَ فِيـكَ دَائِـي

وتتضاعف حيرته بعد أن عجز الأطباء عن رقـوء هذا الرعاف رغم مابذله من جهد ومال:(الطويل)/ (د: ص430)

جَعَلْتُ أُدَاوِي عِلَّتَيْكَ تَعِلَّةً عَسَى الدَّمَ يَرْقَى وَالتَّوَرُّمُ يَنْفَـشُّ
سَأَلْتُ أَطِبَّاءُ الْمَرِيَةَ عَنْهُمَا وَقُرْطُبَـةَ حَتَّى الَّذِي دَارُهُ أَلْـشُ

ليمتزج بذلك مشهد احتضار الابن مع مشهد الهزيمة أمام الموت: (الرمل)/ (د: ص412)

قَطَّعَ الضُّرُّ أَمَامِـي كَيـدِي وَأَرَانِـي قَمَرِي كَيْفَ امَّحَقْ
فَكِلاَنَا فِـي دَمٍ مُشْتَحَـطٍ وَرُعَـافٌ كُلَّمَا كَفَّ دَفَـقْ
أَطْفَأَ السُّقْمُ بِرُغْمِـي نُورَهُ فَإِذَا يَرْعَفُ أَبْكِـي بِالْحُرَقْ
أَذَبِيحٌ أَمْ جَرِيـحٌ وَجْهُـهُ فَأَدِيـمُ الْحُسْنِ مِنْهُ مُخْتَرَقْ
كُرْبُـهُ مِنْ كُرَبِ كَانَتْ بِهِ تَتْرُكُ الأَجْفَانَ قَرْحَى بِالأَرَقْ

إن في وصف الشاعر للحظات ليلة الموت يتجلى ذلك الصراع بين الحياة والموت، فالابن يتشبث برمق الحياة، يتألم ويصارع، ويستنجد بوالده عساه ينقذه، والأب لا يجد إلا الدموع يمزجها بدمائه، بعد أن فقد القدرة على مجابهة المصاب؛ وهو لا يملك حق صد المـوت: (برغمي ـ أمامي = العجز) ، ويسند الأفعال إلى فاعليها، ولا يملك الشاعر إلا البكاء، بكاء اليأس والبؤس، ويقف بذلك عند عبثية الحياة:

(+) الشاعر = الابن = **الحياة**
(-) الضر = الرعاف = **الموت**

التي كانت حملت له السعادة والهناء، فما طمع فيه لم يلبث أن سلبه، ليغدره الموت بذلك، ويضيفه إلى قائمة صرعاه: (الرمل)/ (د: ص412-413)

كَانَ يُشْفِينِي إِذَا قَبَّلْتُـهُ وَإِذَا اسْتَنْطَقْتُ فَـاهُ فَنَطَــقْ
كَانَ يُشْفِينِي وَفِيهِ رَمَـقٌ فَمَنِ الشَّافِي وَقَدْ مَاتَ الرَّمَقْ
لَيْلَةَ الْمَوْتِ دَعَانِـي فَدَعَا لِـي وَقَــدْ قَبَّلَ رَأْسِي وَاعْتَنَقْ
وَهْوَ يَنْدَى عَرَقًا مَنْ شَمَّهُ قَـالَ هَـذَا مَـــاءُ وَرْدٍ لاَ عَرَقْ
وَلَقَدْ مَرَّغْتُ فِي مَصْرَعِهِ وَجَنَاتِـــي وَاسْتَطَبْتُ الْمُنْتَشَقْ

ما معاناة الشاعر أمام جثة ابنه الشاخصة أمامه في صمت، وعجزه المريع؛ إلا تجسيد لمأساة الحياة كلها، وقد يفسر كثرة وصفه لمشاهد احتضار الابن بكونه لا يصف رجلا من ذوي الأعمال الفائقة، وإنما ولدا لا بطولة، ولا مميزات لديه، مما شاع في كلاسيكية الرثاء، ليستعيض به عن صعوبة رثاء الابن التي أقرها ابن رشيق بقوله: "ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة، لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات"[12]؛ وقد ينم ذلك على حس الشاعر المتسم بالإحباط والانكسار، فهو يعيد تصوير فناء آماله، وانهزام أمانيه، ويربط بين موت الابن وموت السعادة؛ "وعليه فإن الشاعر يربط بين (اليأس) و(الموت)، لأن اليأس هو حافة من الحواف المشرفة مباشرة على العدمية"[13]، يصدح بمأساته، ويبكي، ويلحن بكاءه على قيثارة شعره تلحينا مشجيا كله آلام وحسرات، فذكرى الابن تشرق بالدمع، والحزن قاتل: (مخلع البسيط)/ (د: ص417)

يَا فَجْعَتِي بِالْحَبِيبِ سُحِّي دَمْعِي وَقَلْبِي عَلَيْهِ شُقِّي
وَاكْتُبِي ثُكْلَـهُ بِدَمْعِـــي فِـــي وَجَنَاتِي مَكَانَ رِقِّ

ويكثر من تصوير الموت بالقوس والرامي، ليعبر عن حتمية الموت ونفاذه، ويقر حقيقة فناء الحياة، ولا جدوى الادراع منه أو الفرار: (المتقارب)/ (د: ص345)

إِذَا رُعِّظَ السَّهْمُ أَوْ عَظْعَظَاَ فَسَهْـمُ الْمَنِيَّةِ لَـنْ يَرْعَـــظَا
تَهِيضُ الْقِسِيُّ عَلَىَ نَابِـــلِ وَيُصْمِي القَصِـيُّ وَإِنْ أَجْعَظَا

ثُكَذِّبُ هَيْهَاتَ دَعْـوَى عَسَى فَحَسْبُ الْمُؤَمِّلِ أَنْ يُوعَـظَا
وَيَفْـرَحُ بَـــــانٍ بِحَسْنَائِـهِ وَلَوْ ذَكَرَ الْمَوْتَ مَـا أَنْعَـــظَا
هُوَ الْمَوْتُ لاَ بُـدَّ مِنْ سَهْمِهِ فَكَيْفَ ادَّرَعْـنَا لِكَـيْ يُدْلَـــظَا
وَكَيْفَ جَـــرَرْنَا طِوَالَ القَـنَا عَلَىَ كُلِّ طَرْفٍ سَلِيـمِ الْشَّظَى
وَإِنَّ المَنَايَا لَيُدْرِكْـنَ مَـــــنْ وَنَى فِي الْطَرِيقِ وَمَنْ أَرْكَظَا[14]

وقد أخذت صورة القوس والرامي دلالات مختلفة عنـد القـدامى،" إذ كـان لـه معنى آخر في ديانات اللاتين واليونانيين، فكان يراد به التعبير عن قساوة الحـب تارة، وتارة عن آفات الطعون، فالراميان [هما] **أبولـون** وأختـه **أرتيمـيس**"[15]؛ فهو يكرر بذلك ما شاع عند العرب وغيرهم، مما يتصل بالـدهر، ومـا يرمـي بـه الإنسان من سهام الموت التي لا تخطئ أهدافها، ومـا النـاس إلا طرائـد يقتنصـها الموت المنتصر دائما، وما يبذل لصده لا ينفـع، ولا يغـير مـن الأمـر شـيئا، ومـا الحياة إذن إلا أضغاث أحلام، وما قدرة الإنسان فيهـا أمـام المـوت إلا وهـم يزيـد من تعبه:

(البسيط)/ (د: ص289)

دَهْـرٌ حَوَادِثُـهُ شَتَّـى الْأَحَـــــادِيـثِ فَاسْمَعْ بِمَا شِئْتَ عَنْ نُوحٍ وَعَنْ شِيثِ
وَسَلْ عَنِ ابْنِ التُرَابِ الْبِكْرِ كَيْفَ هَوَى فَـأَصْبَحَـتْ قُـوَّةٌ فِيـهِ لِتَنْكِيـــثِ
تَغُـرُّنَا دَارُنَا الدُّنْـيَا بِـزُخْرُفِـــــــهَا وَنَحْـنُ فِي طَلَبِ لِلْمَوْتِ مَحْثُـوثِ
وَإِنَّـمَا هِـيَّ أَضْغَـاثٌ تُضَّغِثُـــــــهَا خَوَاطِـرُ الْوَهْـمِ فِيـهَا أَيَّ تَضْغِيـثِ
مَا أَتْعَـبَ النَّاسَ أَحْيَـاءً وَأَرْوَحَـــــــهُمْ مَوْتَـى لَـوْ أَنَّ رَمِيمًا غَيْرَ مَبْعُـــوثِ

قيم الحياة تغيرت في نفس الشـاعر، وآثـار التجربـة مـع المـوت حطمـت نفسه، واقتنع أن الموت نهاية الحياة، بل هو **مأساتها الكبرى**، وازداد يقيـنا حين نقـل تجربته الجزئية الخاصة، إلى واقع الإنسان عامة لتكون النظرة كلية تتفـق حول حقيقة الحياة بعدها طريقا قصيرا إلى الفناء، صحتها سقام، وغايـة مـن يعيش فيها الحمام، ليؤذن ميلاد الإنسان فيها بموته: (المقتضب)/ (د: ص320)

يَنْفُذُ الْقَضَاءُ عَلَى مَنْ أَحَبَّ أَوْ كَرِهَا

عِشْ سِنِيَّ يَافِعِهَا أَوْسِنِيَّ مُعْمِرِهَا
أَطْـوَلُ الْحَيَاةِ إِذَا مُتَّ مِثْلَ أَقْصَرِهَا

فـالموت مـاض قضـاؤه، أصـم لا يسـمع أنـين النـاس ولا توجعـاتهم، لا يـرحم، ولا يشـفق؛ والإنسـان طـال زمانـه أو قصـر، سـينتهي إلى نهايـة معلومة/مجهولة، تجعل ثنائية: (الطول– القصر) تتساوى بحدوث الموت، الـذي لا يتعطف ولا يلين، ولا يبالي بمـن تصـيبه مصـائبه، هـو رمـز للقسـوة والظلـم: (الوافر)/ (د: ص310)

عَلَى تَعْمِيرِ نُوحٍ مَاتَ نُوحُ فَنَائِحِـةٌ لأَمْرٍ مَا تَنُـوحُ

فسيدنا(**نوح**) -عليه السـلام- رمـز الـتعمير في الأرض، ولم يمنعـه طـول بقائه في دار الحياة من مغادرتها، مثلما لم تمنـع الـدروع والحصـون الأنبيـاء مـن المـوت، ولم تـرحم نمـاذج القسـوة الإنسـانية الـذين أوفـوا إلى غايـة السـؤدد: (الكامل)/(د: ص425)

لَكِنْ طَوَتْـكَ يَـدٌ شَدِيدٌ بَطْشُهَا سيَّـانِ مَرْؤُوسٌ بِهَا وَرَئِيسُ
كُتِبَ الْفَنَاءُ عَلَى بَنِي الدُّنْيَا فَلَمْ يَسْلَـمْ سُلَيْمَـانُ وَلاَ بِلْقِيسُ
سَـلْ كُلَّ جَبّـــــــارٍ عَنِيدٍ مَالَـهُ بَعْدَ الْقُصُورِ مَحَلُّـهُ النَاوُوسُ
دَاسَ الْكُمَـــــاةَ بِخَيْلِهِ حَتَّى غَدَا وَمَنَاطُ تَاجِ الْمُلْكِ مِنْه مَدُوسُ

الشـاعر يتأمـل فـيمن حولـه، ويستحضـر ماضـي الأنبيـاء والملـوك والعظماء الذين كانوا يرفلون في النعـيم، وأتيحـت لهـم أسـباب الحيـاة؛ ثـم هـم يعجزون عن حماية أنفسهم من الموت، ليصل بعد هذا التأمل إلى أن أخرة كـل ما يسمى نعيما فناء وهلاك، ولا يكتفي بنقل تجربتـه الخاصـة إلى واقـع الإنسـان فقط، بل يتجاوزه إلى مظاهر الطبيعـة،

" فيخيل إلينا أنه عرف نوعـا مـن الحلوليـة بـين ذاتـه والطبيعـة"[16]، ويرسـم المشاهد الاحتضارية لعناصر الطبيعة التي تقاسمه الهم، وتجسد المأساة من خـلال رضوخها لحتميات العطب والزوال، "فتجربة الطبيعـة تحتضـن تجربـة الـزمن، وتجربة الزمن تحتضن تجربة الموت"[17]، فكل شيء موجود ومفقود: (المجتـث)/(د: ص327)

لاَ الياَسَمِينُ الْمُنَـــدَّى يَبْقَـــى وَلاَ الْجِلِّنَارُ
وَالآسُ إِنْ كُـــلُّ نَوْرٍ ذَوَى وَفِيهِ اخْضِرَارُ
فَإِنَّهُ سَوْفَ يَـــذْوِي وَيَعْتَرِيهِ اصْفِـــرَارُ
يَا بَدْرُ كُنْـــتَ مُنِيرًا حَتَّى مَحَاكَ السِّرَارُ
يَاغُصْنُ أَصْبَحْتَ يَبْسًا فَأَيْـنَ تِلْـكَ الثِّمَـارُ

(+)الحياة = الياسمين+ الجلنار + الآس + بدر + غصن
(-)الموت= لا يبقى - ذوى - اصفرار- محاك - يبسا

وترتسم في الأبيات صور الزهور وهلاكها بين يدي الزمن، فكل ما في الطبيعة يحتضر؛ فيسقط بذلك ما في نفسه على مظاهر الطبيعة، ويلونها بلون كآبته **وحسه المأساوي**، وتتسع النظرة أكثر إلى المستوى الوجودي الشمولي، لتبين أن حتمية الموت من نصيب جميع الكائنات الحية، سواء كانت من جنس الإنسان أو من جنس الحيوان، إذ "إن الإنسان طريدة لمصائب الدهر، فهو لا يفلت منها مهما حاول التملص، ولا فائدة إذن من التوجع، وإظهار الأسى لأن الدهر لا يسمع شكاة أحد، ولا يراجع من جزع منه بما يحب"[18]؛ ويتجلى العجز، وتتأكد الهزيمة أمام صرعة المنون، فالنهاية لم تصنعها يد الإنسان بحرب أو بثأر، وإنما المرض/الرعاف يضع النهاية **للمشهد المأساوي**: (البسيط)/(د: ص366)

لَوْ سَاءَنِي فِيكَ غَيْرُ اللهِ رُحْـتُ وَقَدْ قَرَعْـــــتُ سِنِّيَّ أَوْأَدْمَيْـتُ إِبْهَامِي
ثُمَّ اثَّأَرْتُ وَحَوْلِـي جَحْـــفَلٌ لَجَبٌ غَزَا وَبَحْرُ الْمَنَايَا حَـــــوْلَهُ طَـامِ
[...]لَكِنْ مَضَتْ فَأَمْضَّتْ فِـيكَ ذَا ثُكَلٍ مَقَادِرٌ كَـلَّ عَنْهَا كُلُّ صَمْصَـــــامِ
إِذَا تَأَمَّلْتُ صَرْعَى الْمَوْتِ لَـــمْ أَرَنِي مُفَرِّقًـا بَيْنَ ضَبْعَانٍ وَضَيْغَـــــامِ
فَانْظُرْ غَدًا هَلْ عُلاَ الْبَرْجِيسِ مَانِعُهُ مِنْ الْحَوَادِثِ أَوْ عَـــــلْيَاءُ بَـهْرَامِ
سَيَهْوِيَانِ وَيُطْفِـي اللهُ نُورَهُـــــمَا وَإِنْ تَرَاخَى بَقَاءُ النَّيِّـــرِ السَّامِي
مَا أَصْدَقَ النَّاسَ لَوْ قَالُوا إِذَا سُئِـلُوا عَنْ كُلِّ عَيْشٍ مَضَى أَضْغَاثُ أَحْلاَمِ

فما أصاب ابنه إن هو إلا قدر يتقدم ويتأخر، لكنه ينفذ في الأحياء، بل يتجاوزهم إلى مظاهر الكون المخذولة أمام حتمية الفناء؛ لينطفئ بذلك نور الحياة، ويعم

السواد، وتخرج بذلك مشكلة موت الابن من حدودها المكانية والزمانية، وتكون مأساة الوجود المتعثر بقدره ومصيره، ولا يبقى الشاعر بعدها يفزع لأي أمر، ولا يغتر بأية خدعة، ولا يرتقب من الحياة إلا الغدر، وبهذا المنطلق الشاحب ستتضح مواقفه من الحياة.

2/- الرؤيا المأساوية:

أراد الشاعر الحصري بتكرار الحديث عن الموت وترجيع الشكوى منه أن يحس غيره الذي أحسه من هذا البؤس، فكلما تراءى له أنه بنى عشا يبغي فيه الحياة آمنا، يسبقه إليه عقاب الموت، فلا تبدو بذلك الدنيا من حوله إلا أشباحا للموت، فهل اكتفى بإقرار هزيمته أمام الموت ؟

يقول الشاعر في مقدمة ديوانه (**اقتراح القريح واجتراح الجريح**)**:** "فجرحتني أنياب النوائب، وقرحتني أوصاب المصائب، نثرت شاكيا ما اجترحت إلى خاطري، ونظمت باكيا ما اقترحت على خاطري، وقلت عسى الله أن يرحم الناظم الناثر، فيسلي المحزون ويقيل العاثر، وسميت هذا الكتاب" اقتراح القريح واجتراح الجريح "، وضمنته قصائد على حروف المعجم، وإن كنت من الأحزان كالملجم، ومقطعات تقفو كل قصيدة في قافيتها، على أنها مثيرة الأحزان غير شافيتها، ونظمت من فصول المنثور، مقطعات في الزهد المأثور على أن خطي جليل، وخطابي كليل، فنزهت في حديقتين زهراوين يانعتين، وبحت بما كان مكتتما، ونحت مفتتحا ومختتما، وأنا استغفر الله من **تسخطي في تشحطي"**[19]. والتوقف عند العبارة (**تَسَخُّطِي فِي تَشَحُّطِي**) يبين من خلال (لسان العرب)[20] :

أ/ السُّخْطُ والسَخَطُ: ضد الرضا [...]، و تَسخَّط وسَخِطَ الشيء سُخْطًا: كرهه، سَخَطَ غضب، أَسْخَطَهُ: أغضبه [...]، تَسَخَّطَ عطاءه: أي استقله ولم يقع موقعا، ومنه الحديث: إن الله يسخط لكم كذا أي يكرهه لكم ويمنعكم منه ويعاقبكم عليه.(س خ ط)

-ليكون من دلالات السخط: عدم الرضا والكراهية والرفض.

ب/ شحط: الشَّحْط وقيل البعد والشَّحَطُ: البعد في كل الحالات[...]، وشَحَطَ فلان في السوم وأبعط إذا استام بسلعته، وتباعد عن الحق، وجاوز القدر [...]

والتَشَّحُط: الاضطراب في الدم [...] تشحط المقتول في دمه أي: اضطرب فيه. (ش ح ط)

-الجمع بين دلالات اللفظتين يبين: إن الشاعر يشير إلى رفضه قدر الموت، وإلى كراهيته فقد الابن، وغضبه مما كتب عليه، ومجاوزته في ذلك القدر والحق، إذ" التسخط احتجاج على اللامعقول الذي يسير الكون "[21].

فقد اشتهى أن يبقى ابنه، ولكن هاجس الموت أكد له أنه لن يبقى؛ ويصدم بإرادة مصيره، ويكتشف برعب أن حقيقة الدنيا غدارة غرارة يقول: (مج الوافر)/(د:ص298)

بَنُو الدُّنْيَا كَأَنَّـــهُمُ	لِقِلَّـةِ هَمِّـــهِمْ هَمَجُ
وَهَلْ هِيَ غَيْرُ دَارِ أَذَى	إِذَا دَخَلُوا بِهَا خَرَجُوا
تَأَمَّلْ كَيْفَ تَأْكُلُـهُمْ	وَهُمْ وُلْدٌ لَهَا نَتَـجُوا
عَشِقْنَاهَا وَلَوْ مَثُلَـتْ	بَدا فِي خَلْقِـهَا عَـرَجُ
تُرِينَا الوُدَّ وَهِيَ بِـــنَا	إِلَى الآفَـــاتِ تَنْـدَرِجُ
وَنَحْنُ عَلَى أَوَاخِـرِهَا	فَذَا هَـــرَجٌ وَذَا مَـرَجُ

وتحمل الدنيا دلالات الآلام والأحزان: (دار أذى، تأكلهم، خلقها عرج)، لتتجلى نزعته التشاؤمية التي ترمق الوجود بنظرة قاتمة، وتتحول الحياة إلى ليل حالك ليس فيه شعاع من ضياء ولا بصيص من أمل.

ويظهر السخط معلما بارزا يعبر عن **رؤيا مأساوية** تجسد التصادم بين: إرادة الموت (قدر الإنسان) وإرادة الشاعر الذي سيسعى إلى تخطي الأمر المقدر له مختلساً مصيره من يد القدر ليجعله يتم على يده، وحسب رغبته، وتتساوى بذلك الهزيمة والنصر، وتتحدد معالم **البطل المأساوي** الذي يدرك أن الأشياء في الحياة لا تتحقق كلية، "ولا شيء يصل إلى جوهره، إذ كل ما فيها يشتبك بعضه ببعضه، وينكسر قبل تمامه [...]، ولكنه يسعى إلى تخطي ذلك كله، محاولا الوصول إلى الأمر الثابت الحقيقي[...]، إنه يدرك عجز الإنسان عن أن يكون أكثر من حدث عابر في الكون"[22] ، ويستشعر غفلة العالم من حوله، ويدعوهم إلى اليقظة، والتحدي يقول: (البسيط)/(د:ص367)

ضَلَّتْ عُقُولُ بَنِي الدُّنْيَا لَقَدْ عَلِقُوا   فِيهَا بِحَبْلٍ مِـنْ الآمَـــالِ أَرْمَـامِ
تَبْكِي عَلَيْهَا وَمِنْهَا وَهِيَّ ضَـــاحِكَةٌ   فَتَرْتَضَى وَهْيَ عَيْنُ السُّخْطِ وَالذَّامِ
أَفٍ لَــهَا إِنَّــهَا أَمٌّ مَبَرَّتُــــــهَا   فِي مَنْعِ مَرْحَمَةٍ أَوْ قَطْعِ أَرْحَـــامِ

يرفض مسايرة الأيام، ويريد أن(**يكون**) أو (**لا يكون**) المفارقة الصعبة لـدى أبطال المآسي، فيسعى لتخليص العالم من المأساوية التي جبل بها، وهو يكشف أن جمال الدنيا لم يكن إلا أكاذيب مضجرة(**أُفٍ**)، وتتهدم آماله، ويسعى إلى تخطيها يقول: (المجتث)/(د:ص325-326)

اِذْهَبْ لَـكَ اللهُ جَـارُ   وَجَنَّـةُ الْخُلْـــدِ دَارُ
اِذْهَبْ بِحُسْنِ عَزَائِـي   فَلَيْسَ عَنْكَ اصْطَبَارُ
حَلاَلُ صَبْرِي حَـرَامٌ   وَسِرُّ ثُكْلِـي جِهَـــارُ
هَيْهَاتَ كَيْــفَ أُوَارِي   مَـا البَـرْدُ مِنْـــهُ أُوَارُ
يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ مَالِــي   حَتَّـى أَرَاكَ قَـــــرَارُ
ذَا الأُنْسُ بَعْدَكَ وِحْشٌ   وَذِي الْمَغَانِي قِفَــــارُ
نَهَارُ ثُكْلِـكَ لَيْــــلٌ   لاَ كَـانَ ذَاكَ النَّهَـــارُ
[...] لاَ مَرْحَبًا بِحَيَاتِــــي   مَاتَ الْكِرَامُ الْخِيَــارُ

الشاعر لا يكتفي بمعاناة **الوعي المأساوي** معاناة سلبية، بل يصـارع القـدر: رافضا حسن العزاء، نافيـا الاصـطبار، محرمـا الصـبر، مجاهرا بثكلـه؛ ليخـتم القدرة بخاتم الإنسان(لا مرحبا بحياتي) متخطيا الموانع: الرضا بالقدر ـ الصبر ـ العزاءـ عدم تمني المـوت، ولا يعقـد بـذلك صـلحا مـع قـدر المـوت، وهـو إذا لم يستطع أن يدعو الابن للعودة إلى الحياة بعد أن قدر له الموت مـن عـل ولا راد لـــه، يســـتطيع أن يواجـــه، ويمـــارس حريتـــه، ويعـــبر عـــن إرادتـــه: (الرمل)/(د:ص411)

لاَ أُبَالِـي بَعْـدَ أَنْ فَارَقْتُـــهُ   بِغُرَابِ الْبَيْـنِ إِنْ قِيــلَ نَعَـقْ
لاَ أُحِبُّ النَّسْلَ بَعْدَ ابْنِي وَلاَ   تَطْمَعُ الْحَسْنَاءُ مِنِّي بِالْعَشَـقْ

نافيا الغريزة المقيمة في جسـده الإنسـاني، هادمـا الحيـاة بالامتنـاع عـن الزواج وكره النسل والأسرة، محرما المتع علـى نفسـه لينضـب معـين الحيـاة، ويؤول الوجود إلى العدم؛ وتنقطع سلسلة الوجود، وتذبل شـجرته، وبالتـالي

لا يستسلم للقدر الذي أراده أن ينجب ليهدر كرامته، ويسلبه من أنجبهم؛ فالموت يضع نهاية الأحياء، والشاعر يختار هذه النهاية، وهو لا يكتفي بإعلان **رؤياه المأساوية** الرافضة، بل يدعو من حوله إلى مواجهة قدر الموت يقول: (الوافر)/(د:ص394)

أَلاَ إِنَّ التَّالِفَ لاَنْتَقَاضِ فَمَا لِمُطَوَّقٍ غَنَّى وَبَاضَا

ينتقل من منع نفسه متع الحياة إلى الدعوة إلى إيقاف التزاوج لتنتهي الحياة الإنسانية التعسة، وينتهي الشقاء الذي يضني الإنسان في هذه الأرض، ويتجاوز ذلك إلى دعوة الحيوانات إلى تعطيل الحياة وإيقافها، مستغربا سعادة الحيوان/ المطوق وهو يغني لموته، ويبيض للفناء، ليقف عند جهل البهائم والطيور لحقيقة الحياة الزائفة:

(الطويل)/(د:ص428-429)

وَلَوْ فَهِمَتْ مَعْنَى الزَّمَانِ بَهِيمَةٌ لأَعْرَضَ خَوْفَ النَسْلِ عَنْ شَاتِنَا الْكَبْشُ
وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا صَحَا مِنْ سُرُورِهِ وَأَمْسَى كَمَا أَمْسَيْتُ مِنْ هَمِّهِ يَنْشُو

ويقرن السعادة بالجهل، " فلكي تكون سعيدا ينبغي أن تكون في جهل الشباب، لأنه لم يعلم بعد ظمأ الرغبة الذي لا ينطفئ، وما ينجم عنه من بلاء، ولم يعلم أيضا أن الرغبة حتى لو تحققت فليس في تحقيقها نفع ولا ثمرة، ثم هو لا يستيقن بعد أن خاتمة الجهاد هزيمة ليس منها مفر"[23]؛ فالاستمتاع بالحياة والإقبال عليها يدلان على جهل الإنسان غفلته، أما من(عرف الدنيا) استطاع أن ينقذ ببصيرته إلى حقائق الحياة، فلم يخدع بالمظاهر الزائفة؛ الشاعر/ البطل المأساوي يحمل عن العالم مأساته، ويخلصه منها، ولا يمل من دعوته إلى اليقظة أو التصدي للقدر يقول:

(مخلع البسيط)/(د:ص463)

خَلَّيْتَنِي فِي وِثَاقِ دُنْيَا تَشْتَدُّ إِنْ سِمْتُهَا التَّرَاخِي
خَدَاعَةٍ بِالْمُنَى خَؤُونٍ لَمَنْ تَعَادِي وَمَنْ تُؤَاخِي
خَلَّيْتَهَا وَارْتَحَلْتَ عَنْهَا لَمْ تَرْضَ فِيهَا عَنِ الْمُنَاخِ
خَلُصْتَ مِنْهَا وَنَحْنُ فِيهَا مِثْلُ الْعَصَافِيرِ فِي الْفِخَاخِ

ارتبطت الدنيا بدلالات: **وثاق ، تشتد ، خداعة ، خؤون ، الفخاخ = الشقاء** والناس فيها كالعصافير الضعيفة السهلة الاقتناص، قدرها أن ينصب لها الشرك لتقع فيه، و هو ما أطلق عليه - فيما سبق ـ **الأمر الواقع؛** لكن الشاعر/ البطل المأساوي توقع ما سيتوقعه الفيلسوف الإسباني **أونامونو** حين قال: " إن يكن الموت أو الكف عن(الكون) مؤلما، فإن ما هو أشد إيلاما أن نبقى على ما نحن عليه دون مزيد، ودون أن نبدل ما بأنفسنا، فنكون أكثر مما نحن عليه، أو نكون كل شيء"[24]، وهو ما يدفع الشاعر إلى جعل إرادة الموت تنهزم، وتهوي أمام إرادته؛ قدر الشاعر أن يتعشق الدنيا، ويتشبث بها، ويقبل الأمر الواقع، ويميل إلى المسالمة والمساومة ـ وهو ما يفعله الناس عامة ـ، إلا أنه يتخطى هذا القدر، متخطيا الإنسان العادي محققا ذاته يقول:

(مج الوافر)/(د:ص383)

حَبَبْتُ مِنْ أَجْلِهِ الدُّنْيَا فَفَارَقَنِي لأَضْغَنَهَا
شَوَادِنُ مكْنَسِي بَعُدَتْ فَلَسْتُ أُحِبُّ مُشْدَنَهَا
كَرِهْتُ النَّسْلَ لاَ رَقَّتْ مُخَدَّرَةٌ لأَحْصَنَهَا

ويضع بذلك أمرا واقعا جديدا يعبر عن **رؤية مأساوية** تدفع صاحبها إلى خلع قناع مسايرة القدر، وإيقاف لعب دور على مسرح الحياة، وهي الرؤيا التي سيرددها الشاعر المسرحي الإسباني **كالديرون** في قول شهير:" [...] أكبر خطيئة ارتكبها الإنسان أنه ولد"[25]؛ فالشاعر/ البطل المأساوي بكراهية النسل يكفر عن خطيئته المتمثلة في إنجاب الأبناء، ليكونوا وليمة لإرادة الموت، ويعبر عن تسخطه أمام هذه الإرادة واضعا نفسه في منزلة ملتبسة: هي غير منزلة البريء، وغير منزلة المذنب باعثا في النفوس أحاسيس الشفقة والغضب والخوف يقول: (المديد)/(د:ص445-446)

لاَ حَبَا مِنْ بَعْدِهِ وَلَدٌ لاَ تَسَلَّتْ أُمُّهُ حَبَلاَ
اَدَنِي دَهْرِي فَأَبَّدَنِي وَاحْتَمَى فِي الْعِبْءِ فَاحْتَمَلاَ
[...] لِتَمُتْ نَفْسِي بِحَسْرَتِهَا مَنْ إِلَيْهِ ارْتَاحَتِ ارْتَحَلاَ
جَذَمَتْ حَبْلِي النَّوَائِبُ مِنْ سَكَنِي وَابْنِ فَلاَ جَذَلاَ

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ بِي رَشَـــدًا لَكَفَانِي لَمْسِــــيَ الْكَفَـلاَ
أُعِنَتْ نَفْسِــيَ ذِي عَنَـتٍ لِضَجِيعٍ حَـلَّ لِـــي وَحَـلاَ
لَيْتَنِي عِفْـتُ الزُّلاَلَ فَقَـدْ أَعْقَبَ الْغُصَّاتِ وَالزُّلَـــلاَ
عِبَـرُ الأَيَّـــامِ قَائِلَـةٌ وَيْحَ مَنْ أَغْفَى وَمَنْ غَـفَلاَ
وَبَنُـو الدُّنْـيَا كَأَنَّــهُم فِي عَمًى عَنْهَا فَلاَ عَقَــلاَ
لَوْ دَرَى عَيْـــرٌ دَوَائِرَهَـا مَا نَزَا مِنْ هَوْلِ مَا نَـــزَلاَ

يقظة الشاعر/ البطل المأساوي أمام عمى العالم من حوله تدفعه إلى التطرف/التسخط ، فلا يكتفي بتعطيل الحياة وفرض إرادته، وإنما يطرد ابنه(أخ الفقيد)، ويجعله سببا في موت أخيه، ويحرمه من الإرث يقول: (الطويل)/(د:ص380)

أَتَانِي رَدَى عَبْدِ الْغَنِيِّ فَهَدَّنِـي عَلَى (ابْنِ لُبَاةٍ) خَانَهُ (ابْنُ أَتَانِ)

ولا يكتفي بوصفه بابن الأتان يقول: (المجتث)/(د:ص284)

إِنَّ الْحَبِيبَ الَّذِي قَـدْ بَغَى عَلَـيَّ جَحَدْتُـهُ
لَـمْ احْتَمِلْ أَنْ أَرَاهُ بِمَنْزِلِـي فَطَرَدْتُـهُ
اَتْهَمْتُهُ فَـوَ رَبِّي لَوْلاَ التُّقَـى لأَقَدْتُـهُ
وَكَيْـفَ أُورِثُ مَالِي مَـنْ حَلَّ مَجْدًا عَقَدْتُهُ

تتجلى الفاعلية في الأفعال:(**جحدته- لم أحتمل- أراه- طردته- اتهمته- أورث-عقدته**) الحاملة لدلالة الإقدام تقابل(**لولا التقى لأقدته**) الدالة على الإحجام، ليبرز هذا: التقابل: (الإقدام ـ الإحجام) خصيصة المجاهدة، وهي ميزة **الوعي المأساوي**: الشاعر يريد إحراق الابن، ويمتنع عنه لوجود التقى الذي يدفعه إلى سلوك الطريق المعبدة؛ فينطفئ بذلك وعيه المأساوي فاسحا المجال للإيمان بالعناية الإلهية يقول **روسي**: " نقع أحيانا في غمرة المأساوية وليس لنا حيالها غير موقفين إنسانيين ممكنين؛ فأما نفي المأساوية أو تبريرها بالتأكيد على وجود العناية الإلهية، وأما التأكيد على أنها تعصى على كل تأويل"[26] ، ولا يكون بذلك تشاؤم الشاعر الحصري مظلما خالص الظلام، بل تلمع في سمائه بروق الأمل، تشد عزيمته، وتدفعها إلى المسالمة والرضا بالقدر.

إحالات:

[1] -أبو الحسن علي الحصري شاعر قيرواني من شعراء القرن الخامس الهجري ،ترجمته في:ابن بسام:الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تح سالم مصطفى البدوي،دار الكتب العلمية، بيروت،ط1،1998،ج4،ص148-149.

[2] - إيليا الحاوي : في النقد و الأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط4، 1979، ج2، ص37.

[3] -: المرجع نفسه، ن ص.

[4] - إيليا الحاوي : في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1980، ج3، ص5.

[5] - يقول زهير بن أبي سلمى :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ينظر – الحسين بن أحمد الزوزني : شرح المعلقات السبع، دار الثقافة، بيروت، 1969، ص92.

[6] - المقصود بلفظ **العبثية** ما أورده الشاعر الحصري(مجزوء الخفيف)/(د: ص293)

وَلَدِي يَوْمَ مَوْتِهِ أَصْبَحَ الدَّهْرُ ذَا عَبَثْ

[7] - أبو الحسن الحصري: الديوان، تحقيق محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحي، مكتبة المنار، تونس، ط1، 1963، ص454 وستعتمد االدراسة الرمز د: للديوان متبوعا بالرمز ص: للصفحة، ثم رقمها في الإحالة على أشعار الشاعر.

[8] - عز الدين إسماعيل :: كل الطرق تؤدي إلى الشعر، الدار العربية للموسوعات، لبنان، ط1، 2006.، ص161.

[9] - المرجع نفسه، ص164.

[10] - شوقي ضيف : الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1979، ص7.

[11] - ماجد قاروط : المعذب في الشعر العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص11.

[12] - ابن رشيق : (الحسن أبو علي) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2004.، ج2، ص172.

[13] - ماجد قاروط : المعذب في الشعر العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص175.

[14] - حمدان حجاجي : ابن خفاجة، الشركة الوطنية، الجزائر، ط2، 1982، ص92.

[15] - رعـظ: كسـر رُعظـه: مـدخل سِـنْخ النصـل - عظعظـا: ارتعـش في مضـيه والتوى- عاكظ: قاهر - يعكظ: يـرّد- بهظـتي: غلبـت وأثقلـت وبلغـت بـه مشـقة- لُفاظ: ما يطرح ويلفظ-وَكَظْتَ: واظب وداوم

[16] - إيليا الحـاوي : في النقـد والأدب، دار الكتـاب اللبنـاني، بـيروت، ط1، 1980، ج5، ص34.

[17] - المرجع نفسه : ص34.

[18] - المفضل الضبي : المفضـليات، تـح أحمـد محمـد شـاكر، وعبـد السـلام هـارون، دار المعارف، مصر، 1964، ص422.

[19] - أبو الحسن الحصري : الديوان، ص264.

[20] - ابن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، م5.

[21] - رجاء بن سـلامة : العشـق والكتابـة، منشـورات الجمـل، كولونيـا، ألمانيـا، ط1، 2003، ص370.

[22] - أنطوان معلوف : مدخل إلى المأساة والتراجيديا والفلسـفة المأسـاوية، المؤسسـة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1982، ص70.

[23] - زكريا إبراهيم : مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، د ط، د ت، ص72.

[24] - Unamuno. De Miguel : le sentiment tragique de la vie, NRF, Gallimard, Paris, 1937, P167.

[25] - كالديرون (1600-1681) شاعر مسرحي إسباني صاحب مسرحية (الحياة حلم) ينظر – أنطوان معلوف : المدخل إلى المأساة ، ص72.

[26] - Rosset. Clément : la philosophie tragique, PUF, Paris, 1960, P163